

كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الأول

مقياس: السينما الصامتة

المحاضرة رقم 04 بعنوان:

" مدرسة برايتون والسينما البريطانية الصامتة "

يُعزى الفضل إلى مدرسة برايتون البريطانية في تدشين البدايات الأولى لما سيُعرف لاحقا بـ 'أفلام المطاردة'، ذلك النوع الذي شكّل تحديا جماليا وتقنيا لما يتطلبه من رشاقة في السرد ومرونة في حركة الكاميرا، إذ ينبغي لها أن تنتقل بانسياب إلى أسلوب المطاردة، في إيقاع بصري متسارع لا يعرف السكون. وقد تجلّى هذا الحسّ الجديد في فيلم 'زواج في السيارة' سنة 1903 لـ ألفريد كولينز، الذي كان أول من ثبت حرية وجهة النظر داخل الإطار الفيديوي، فاتحا الطريق أمام المخرج الأمريكي دافيد غريفيث ليبلغ بتلك الحرية ذروتها بعد أعوام قليلة. ومنذ تلك اللحظة، كان شيء جوهري في الفن السابع قد وُلد، فأرست أبعديته البصرية، وتبلور فيه لأول مرة مفهوم التوليف الروائي.

ورغم هذا التوهج الأول، ظل إنتاج السينما البريطانية متراجعا لفترة طويلة، إذ بقيت منذ سنة 1896 في حدود إنتاج محدود يغلب عليه الطابع التجاري والإخباري، قبل أن تدخل طورا من السكون امتدّ حتى

أقول السينما الصامتة. غير أنها سُبُعت من جديد خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها، لتتحول إلى قطب عالمي يستقطب كبار المبدعين، ويقفز بالسينما البريطانية إلى مصافّ الريادة.

كانت أزمة السينما في بريطانيا أقل حدة من نظيراتها في القارة الأوروبية، حيث ازدهرت العروض السينمائية في قاعات الموسيقى والملاهي الشعبية بفضل الرائد 'ويليام بول'، الذي صوّر مشاهد من الحياة اليومية وحوادث الهواء الطلق. ومع فيلمه 'الجندي المتطرف'، الذي مثله هواة مرتجلون، بدأ بول أولى تجاربه الإخراجية، ليوصلها لاحقا بأعمال رائدة مثل 'آخر أيام بومبي' و'رحلة نحو القطب الشمالي' (1899)، وهو فيلم ترك أثرا بارزا في ذاكرة السينما البريطانية، وربما ألهم المخرج 'جورج ميليس' في إنجاز فيلمه الشهير 'غزوة القطب' بعد عقد من الزمن.

ومن بين أبرز المزايا التي ميّزت أعمال 'ويليام بول'، فيلمه اللافت 'سباق جنوبي بالسيارة في ساحل بيكاديللي' سنة 1900، الذي شكّل آنذاك ثورة في التعبير السينمائي. فقد صوّر في الهواء الطلق، في تجربة جريئة استخدم فيها بول لأول مرة الكاميرا المتحركة بصورة واعية وجمالية لتجسيد الحركة الدرامية، فغدت العدسة بمثابة عين تتسارع مع الحدث، تُوهم المشاهد بأنه يجلس داخل السيارة المنطلقة بأقصى سرعتها، وهو يتنقل بين المنعطفات متفاديا الحوادث والاصطدامات في لحظات مشحونة بالإثارة.

غير أنّ هذا التوظيف للحركة والتصوير الخارجي سيبلغ درجة أكمل من النضج على يد كل من جيمس ويليامسون وجورج ألبرت سميث، وكلاهما من مدينة برايتون، المدينة التي كانت مهدا آنذاك للمخترع 'فريز غرين'. وقد بدأ الاثنان مصوّرين على الشاطئ، قبل أن يتحوّلا إلى رصد الحوادث الآنية وتسجيلها بوعي فني جمالي. وكان فريز غرين قد اطّلع على تجارب جورج ميليس، بل يُرَجَّح أنه سبقه إلى تجربة تطابق الطباعة (double printing)، التي استخدمها في تحقيق خدعة ازدواج الشخصية في فيلمه 'إخوة كورسيكيون' (1898)، المقتبس من الميلودراما التي كتبها 'ألكسندر دوما'.

وقد استكمل 'جيمس ويليامسون' و'جورج ألبرت سميث' - وهما من رواد برايتون - هذا المسار بتجارب أكثر اكتمالا، حين حوّلوا الكاميرا إلى أداة سردية تتجاوز التسجيل إلى خلق الحدث البصري ذاته.

ولعل فيلم 'مهاجمة بعثة في الصين' سنة 1900 لـ ويليامسون يُعدّ نموذجا لتوظيف السرد البصري في تلك الفترة، إذ بُني على أربع لوحات مترابطة تشكّل مشاهد معركة تتطور بذكاء من داخل الفضاء إلى خارجه، عبر توليف سردي غير مسبوق، حيث تتحول إشارة زوجة القسّ من شرفتها إلى محرّك درامي ينتقل بنا إلى ساحة قتال جديدة. بهذا، وُلدت البداية الأولى للسينما القصصية التي مهّدت لظهور أفلام المغامرات ورعاة البقر وغيرها من الأنواع الدرامية الحديثة.

وفي السياق ذاته، نجح 'جورج ألفريد سميث' في ابتكار تقنية التقطيع داخل المشهد، إذ انتقل في فيلمه 'نظارات الجدة' سنة 1900 بين لقطات متتابعة تعبّر عن نظرة الطفل وعدسة الجدة والعصفور في القفص، بواسطة قطع مباشر داخل إطار دائري أسود، مؤسسا بذلك أولى اللقطات التي سميت بـ 'اللقطة الذاتية أو وجهة النظر'. (Point of View Shot) التي ستصبح لاحقا من أعمدة اللغة السينمائية.

وسرعان ما تطورت هذه الفكرة في أفلام مثل 'القبض على اللص' (1901) و'أطلق النار' (1902)، لتُصبح المطاردة السينمائية نوعا معترفا به بحلول سنة 1903. ومن هنا انطلقت أسماء لامعة مثل 'الماتشو، الهاكر، وألف كولينز'، الذين صاغوا عالما من الإثارة بأفلام مثل *Pickpocket* و *Daring Daylight Burglary* و *Desperate Poaching Affray*.

ولم يتوقف الابتكار عند هذا الحد، فقد أدخل سميث مشهد الحلم ضمن السرد الواقعي في فيلمه 'سانتا كلاوس' (1898)، حين جعل حلم الطفلين يظهر داخل قناع دائري في زاوية الكادر، مستلهما هذا التكوين من عروض الفانوس السحري التي كانت توظف الصورة الخيالية للتعبير عن الرؤى والأحلام، وهو ما سيمهّد لاحقا لتقنية المشهد المدمج داخل اللقطة السينمائية.

أما تحفته من خلال فيلمه 'البيت الذي شيده جاك' سنة 1900، فقد تجلّت فيها عبقريته التقنية باستخدام الحركة المعكوسة بطريقة متتابعة، مستعيدا أثر الدهشة الذي أحدثه فيلم الأخوين لوميير 'هدم الجدار' سنة 1985، حيث يعود الجدار المهدوم ليُبنى من تلقاء نفسه.

وهكذا، أرست مدرسة برايتون اللبنة الأولى للتقطيع والمونتاج واللقطة القريبة، تلك التي ستنتقل لاحقا إلى ضفاف أمريكا عبر المخرج 'إدوين بورتر' الذي استلهمها في فيلمه الشهير 'سرقة القطار السريع' سنة 1903، مؤكداً أن الإبداع البصري الذي انبثق من مدرسة برايتون هو الذي مهّد لولادة السينما الحديثة كما نعرفها اليوم.

المكتبة البيبليوغرافية:

*مارسيل مارتن، اللغة السينمائية والكتابة بالصورة، تر: فريد مزاوي.

*جورج سادول، تاريخ السينما في العالم، تر: إبراهيم الكيلاني.

*خالد ألقلي، السينما والجذور.

*ديفيد روبنسون: تاريخ السينما العالمية 1895 / 1980 ، تر: إبراهيم قنديل.